فلسفة اللغة عند نيتشه

الأستاذ حسين أمزيان

أستاذ مكلف بالدروس

المدرسة العليا للأساتذة –قسنطينة-

ملخص

ليست اللغة عند نيتشه سوى تبسيطا للواقع، لأن خاصية التفكير، التي تأخذ أصلها من صور، لم تنتظم لإدراك المصير؛ ومن ثم فإن كل ما تدعوه "حقيقة "، أخلاق، معرفة، علم، إلخ ليس سوى اختزالا ومجازا ومحاولة البلوغ "في ذات" الأشياء

من أين نبع هذا؟ من سوء ظن الفلاسفة، ومنذ سقراط، بالجسد، بحيث تبين لنا الفيزيولوجيا بأن الوعي ليس سوى "وسيلة" في خدمته، وأن "حقيقتنا ليست سوى لغة مشفرة للانفعالات والشغفات، التي من جانبها، هي لغة مشفرة للوظائف العضوية.

ولكن ما الذي يجب علينا فعله لمعرفة إن كانت لغتنا توافق تماما الواقع أو لا توافقه؟

حسب نيتشه، إذا تناولنا "منتجات" اللغة بمنظور الفنان والفن بمنظور الحياة، فإنه بمقدورنا أن نفكر فيه ونعبر عنه بلغتنا وفيها مثلما كان الإغريق قبل سقراط.

Résumé

Pour Nietzsche, le langage n'est qu'une simplification de la réalité parce que l'intellect, qui tire son origine des images, n'est pas organisé pour concevoir le devenir, et donc tout ce que nous appelons « vérité » morale, connaissance, science etc…, n'est que simplification métaphore et essai de déceler l'en-soi des choses.

D'où vient ceci ? Du malentendu des philosophes, depuis Socrate, a propos du corps. La physiologie nous montre que la conscience n'est qu'un instrument a son service, que notre vérité n'est que le langage chiffré des passions qui sont, de leur côté, le langage chiffré des fonctions organiques. Mais que devrons-nous faire pour savoir si notre langage ne correspond exactement au réel ou pas ?

Selon Nietzsche, si nous envisageons les « produits » du langage dans l'optique de l'artiste et l'art dans celle de la vie, nous pouvons vivre ce que nous pensons et exprimer dans et par notre langage

تبلغ الرَدّية في موضوع اللغة مداها في فلسفة نيتشه انطلاقا من بلوغ فقه اللغة، تخصصه الأصلي، حدوده القصوى مما جعل نيتشه يبحث في الفلسفة رغم ثنائه على فقه اللغة[1]، الذي جعله يكتشف "الخطأ الأصلي"[2] أو العقل الذي لا يرى سوى انعكاس نفسه ويقف على حقائق "ميتافيزيقيا اللغة"[3] و"الإيمان بقواعد اللغة"[4]. بحيث يمكننا أن ننطلق من القواعد إلى العالم الفيزيقي مرورا بالكلمات واللغة والوعي والفكر، مثلما يمكننا أن نعود أدراجنا وعبر هذه المحطات بالذات انطلاقا مما نسميه حقيقة، لنصل إلى القواعد.

وفي موضوع اللغة أيضا يقبع كل نيتشه وبمقدور القارئ أن يطلع فيه لوحده على موضوعاته الأساسية كالحياة والإنسان وإرادة القوة والأخلاق وما وراء الأخلاق...إلخ، ومثال ذلك تعميمه لفكرة الانحطاط في الأدب على باقي مظاهر الحياة الأخرى في قوله: "بم نتعرف على كل **انحطاط أدبي؟** حين لا تكون الحياة دافعا لكل شيء وتصبح الكلمة سيدة ثم تتفجر خارج الجملة، فتفيض الجملة لتغطي معنى الصفحة، التي تحيا[بدورها] على حساب الكل: أي حين لا يضحى الكل يشكل كلا. بيد أنّ هذه الصورة تنسحب على كافة أساليب **الانحطاط**: إنّها وفي كل مرّة، فوضى الذرات وتشتت للإرادة. وفي الأخلاق، يعطي هذا الأمر الحرية الفردية وذلك ما يعطي في مجال الأخلاق "الحرية الفردية"، وحينُ يمّد إلى النظرية السياسية: "الحقوق ذاتها للجميع". الحياة، نوعية الحياة **ذاتها**، اهتزاز وفيض الحياة وهي محشورة في أصغر التفرعات، وكل ما تبقى **بلا** حياة. في كل مكان، شلل وعذاب وخمول، **أو** نزاع وفوضى: هذا وذاك يتجليان، أكثر فأكثر، للنظر كلما ارتقى المرء في هرم أشكال التنظيم. المجموع لم يعد قادرا على العيش: لأنّه مشكل ومحسوب واصطناعي، إنّه منتوج حوصلة"[5].

لا شك في أنّ نيتشه، الذي سمّى نفسه باكرا: "آخر فيلسوف"[6]، تفطن باكرا أيضا إلى أمر كون "المنظومات الفلسفية" مجرد منظومات قواعد، لا تملك من المحتوى سوى شكلها في حد ذاته"[7]، ولم يتوصل إلى التعميم المشار إليه سوى عبر الإغريق، فقد ظل يتذكر صرخة هيراقليط Heraclite– الذي قال: "لا أرى شيئا سوى المصير devenir، فإياكم وأن تظللوا أنفسكم! لأنّ الأمر يتعلق بأثرٍ لقصر

نظركم وليس لجوهر الأشياء، إذا اعتقدتم أنّكم أدركتم أرضا يابسة في مكان ما على بحر المصير والزائل.إنكم تستعملون أسماء الأشياء وكأنّ لها مكانة ثابتة، غير أنّ النهر الذي تنزلون إليه لثاني

مرّة لن يكون النهر ذاته الذي نزلتم إليه لأول مرة"–[8] ليقول في إحدى فقرات أواخر فترة إنتاجه، التي سبقت انهياره، بأنّ :"وسائل تعبير اللغة لا تصلح لقول الـ "مصير"[9] ولا لتصوره لأنّ "ملكة التفكير عندنا، التي تأخذ مصدرها من **صور**، تجنح لإثبات الاستقرار العام"[10].

ولأنّ نيتشه يتحدث بـ "الأنا الكونية"[11] فإنّ الإنسان، الذي صنع العالم الذي يعنيه (العالم الذي يعيش فيه بوعي، بألوانه وأشكاله وأشيائه وعلله ومعلولاته، العالم الذي يمثل جزءً مما أنتجه نشاطه العقلي)[12] لا يمكنه أن يلج الكون سوى عبر نفسه مادام جزءً من طابع caractère الكون[13]. ومن هنا كانت جذرية نيتشه في معالجة موضوع اللغة، الذي يرتبط بموضوعات أساسية شتى كالسببية والمنطق والعلم والمعرفة والفن وعلم النفس، ...إلخ ويدفعنا إلى طرح جملة أسئلة تدور حول معنى تناول نيتشه لموضوع اللغة؟ وهل تمكّن نيتشه بالفلسفة من قول ما لم يقله بفقه اللغة؟ وهل وضع نيتشه منهجا لمعرفة كافة الأشياء، كسبيل لمعرفة الإنسان لنفسه بنفسه، مثلما أشار إلى ذلك في إحدى فقراته؟[14]، لأنّ المنهج هو الذي يتحكم، على حد تعبير فيتغنشطاين Wittgenstein، في اللغة ويضع الحدود لعالمنا؟[15]. إلى ما ترشدنا الـ"نيتشية"، [إلى أي واقع]، كيف نعرف إن كنّا مخطئين أم لا؟ ثم، ألم يسع نيتشه، في مجمل مؤلفاته، إلى توضيح وتحليل اللغة فقط لأنّ "الحقائق" التي تحدث عنها كان بإمكانه أن يبلغها عبر الفيزيولوجيا والبيولوجيا... وباقي فروع علم الطبيعة التي ولع بها ؟.

بالرغم من أنّه كان لتجربته الفيلولوجية كبير الأثر على أعماله كلها، إلاّ أنّ تناول نيتشه لموضوع اللغة جاء بفعل تعذر فهمه لقضايا شتى، في فترة بدأت ترتسم فيها معالم فلسفته، وذلك ما يمثل حدود فقه اللغة، حيث لاحظ مثلا أنّ "اللغة لم تقدر أبدًا ولن تقدر على إبراز، وبشكل ظاهري، المنشأ الأصلي والعميق للموسيقى"[16]، ولذلك سوف نجد نيتشه فيلسوف التاريخ وعالم النفس كلما عثرنا على فقرة تناول فيها هذا الموضوع مما سوف يدعم جزءً هاما من بحثنا، الذي نسعى من خلاله إلى إبراز هذين الجانبين المعرفيين في النص التاريخي، بحثا وبناءً ونقدا*.

ومنذ البداية، عمل نيتشه على الذهاب عميقا في اللغة والعناصر المرتبطة بها، التي تناولها، مثلما نلمس ذلك في أولى كتاباته كـ: "الخطابة القديمة"، "الحقيقة والكذب بالمعنى الخارجي للأخلاق"، "كتاب الفيلسوف"، "ميلاد المأساة" و"الفلسفة في العصر المأساوي للإغريق" وكانت أولى القضايا التي شغلته ما أسماه عيب "الحس التاريخي أو خطيئة كافة الفلاسفة الأصلية"[17] أي

"انطلاق الإنسان من نفسه، من آخر نتيجة توصلت إليها الطبيعة، ثم تمثله لنفسه القوى، القوى الأصلية، مثلما يتم ذلك في وعيه. إنّه يتخذ **عواقب الميكانيزمات الأكثر تعقيدا في المخ** كمعطيات، وكأنّ تلك العواقب ظلت هي نفسها من البداية"[18]. كما نجد لدى "الفلاسفة هذا الخطأ المشترك الذي يكمن في انطلاقهم من الإنسان الحالي ثم الاعتقاد ببلوغ الهدف بعد القيام بالتحليل. وبطريقة لا إرادية يظهر لهم "الإنسان" كحقيقة خالدة ***aeterna veritas***، كعنصر ثابت في الدوامة كلها وكمعيار مضمون للأشياء. غير أنّ كل ما يعرضه الفيلسوف عن الإنسان، ليس في العمق سوى شهادة على الإنسان في فترة وجيزة ومحدودة جدا(...) والكثير منهم يتخذ، عن غير علم، آخر أشكال الإنسان تماما مثلما نجم بتأثير ديانات معينة، وحتى أحداث سياسية معينة، وكأنّه الشكل الثابت الواجب الإنطلاق منه. إنّهم لا يريدون أن يعلموا أنّ الإنسان، وكذا ناصية المعرفة أيضا، نتيجة لتطور. في حين ذهب بعضهم حتى إلى استخراج العالم برمته من ناصية المعرفة هذه. والحال هذه، فإنّ الجزء **المهم** في التطور البشري جرى في أزمنة غابرة، وقبل الأربعة آلاف سنة التي بالكاد نعرفها، بل وقد يكون الإنسان قد تغير بشكل ضئيل في هذه الأخيرات(...) كما أنّ الناس يتحدثون عن إنسان الأربعة آلاف سنة الأخيرة وكأنّه الإنسان **الخالد**، الذي ارتبطت به كافة الأشياء، منذ ظهورها، بعلاقة طبيعية غير أنّ كل شيء تطور، ولا وجود **لوقائع خالدة** faits éternels: مثلما لا توجد حقائق مطلقة"[19].

كيف سيخرج نيتشه من اللغة ليعرفها؟

من مثل هذا النص تظهر جذرية النقد النيتشي لما ظل يعرف إلى تاريخ ظهور أولى كتاباته كحقيقة وعلم ومعرفة...إلخ، وتبدأ طريقته في فرض نفسها ومن ثمة سنمزج بين نقده وطريقته، لأنّ الموضوع لن يكون في النهاية سوى توضيح أسس الطريقة الأكثر إقناعا من غيرها، على الأقل بواسطة المقارنة البسيطة.

أ–التفسير الفيزيولوجي والبيولوجي: يعد الخروج من اللغة قصد النظر إليها نظرة بريئة ومحايدة لفهمها وتعريفها إجراءً محفوفا بالمخاطر لأنّه من الممكن أن تكون المساءلة، المباشرة للفاعل بشأن الفاعل والانعكاسات التي يقبض عليها العقل بشأن نفسه، مفيدة ومهمة لنشاط الفاعل في إعطاء تفسير خاطئ عن نفسه، ولذلك يجب الانطلاق من الجسد والفيزيولوجيا للحصول على تمثل صحيح عن طبيعة وحدتنا المثالية، ومن ثمة التخلي عن شهادة الحواس والنظر إلى الجسد كجماعة وكحكم ذاتي autarchie، يكون فيه الحاكم والمحكومين من نفس النوع، كلهم يحسون ويرغبون ويفكرون"[20]. ولأنّه في **الجسد** البشري يحيا ويترسخ أبعد وأقرب ماضي كل مصير، الذي عبره وما وراءه وفوقه يبدو أن نهرا خفيا هائلا يسرى فيه، فإنّ هذا الجسد فكر أكثر إثارة للدهشة من الدهشة التي ظلت "الروح" تثيرها إلى عهد قريب"[21].فحيث نرى أو نلمح حركة في الجسد وجب الانتهاء إلى وجود حياة خفية ومثالية ترتبط بها، لأنّ الحركة هي رمزية موجهة للعين وتدل على أن شيئا ما تم الشعور به ورغبته وتفكيره"[22]. وبهذا فالجسد عقل كبير* و"مصدر كافة التفسيرات التي تشهد بدورها على حالة الجسد المفسر"[23]، مثلما يبينه خطاب زرادشت:

" أنا جسد، من أقصايا إلى أقصايا، ولا شيء غيره.

ما الروح سوى اسم لشيء من هذا الجسد،

الجسد عقل، عقل كبير، تعددية بمعنى واحد، حرب وسلام، قطيع وراع،

يا أخي، عقلك الصغير، الذي تسميه "روحا"، أداة لجسدك، أداة صغيرة، لعبة صغيرة، لعقلك الكبير.

تقول "أنا" وتتفاخر بهذه الكلمة. بيد أنّ ما هو أكبر منها ولا تريد أن تؤمن به . جسدك وعقله الكبير: لا يقول "أنا" بل يحققها"(...)

لا غاية في ذات ما تدركه الحاسية ويتعرف عليه العقل، بيد أنّه يبتغي إقناع نفسه بأنّهما كل شيء: وذلكم غروره. ليست الحاسية والعقل سوى أدوات ولعب وخلفهما تقبع الذات، التي تبحث أيضا بعيون الحاسية وتسمع بآذان العقل. تصغي الذات دائما وتسعى: تقارن، تُخضِع، تحتل، تُهدم. إنّها تسود وهي السيدة المتحكمة في العقل(...) إنّها تقطن جسدك، وهي جسدك. في جسدك من العقل ما يفوق ما يقبع منه في أفضل حكمك"[24].

وبذكر حديث زرادشت عن "العقل الكبير" نبلغ نقطة منهجية أساسية في تناول نيتشه لموضوع اللغة، ونعني بها إرادة القوة ومقولاتها الأخرى كالحياة والتقدير والصراع... إلخ، ونقف على النقطة الأساسية التي انتقدها، أي عالم المعرفة، وليس الطبيعة مثلما اعتقد الكثيرون، ليضع قبلها مسألة القيم لأنّ "ما يُدعى معرفة، يرتبط بمقياس حقيقة، أي بما يفترض تقديرا [قيميا]"[25].

"والتقديرات لم تنشأ من رغبة في الحقيقة، إذ أنّ التعضي في صراعه مع الوسط، لم يكن في حاجة إلى "معرفة" الوسط معرفة صحيحة قدر الإمكان، بل إلى **تفسيره** بالرجوع إلى ضروریاته الأساسية، وإلى جهل [تجاهل] تدفق التفاصيل قصد الذهاب مباشرة لما قد يشفي شهيته"[26]** وبهذا يعصف نيتشه بكل ما ظلت البشرية تسميه حقيقة أو علما، بما في ذلك كل تفاصيلهما الدقيقة.

ومهما يكن من أمر فإنّ نيتشه ينطلق من فكرة كون الإنسان جزءً من مجموع "الكائن الكوني"[27] وأنّ وجوده عرضي ابتدع له، وهو شاب، هذه المقدمة: "في جانب إحدى زوايا الكون المغمور بأنوار عدد لا يحصى من المنظومات الشمسية، وجد في احد الأيام، كوكب ابتدعت فوقه الحيوانات الذكية، المعرفة. كانت تلك هي الدقيقة الأكثر اعتزازا والأكثر كذبا في "التاريخ العالمي"، بيد أنّ ذلك لم يكن سوى دقيقة واحدة، فبعد عدة تنهدات للطبيعة، تجمد الكوكب ولم يبق أمام الحيوانات الذكية سوى الموت"[28].

وبهذه المقدمة انفلت من أمور شتى كالغائية والصدفة... وغيرهما [29] رغم أنّه تحدث عن مثالية كونية وغير مؤنسنة للكون لأننا "أشخاص يمرون في حلم إله ليصيروا ما يحلمه"[30]. وقد قادته أعماله الفيلولوجية الأولى، وخاصة ما تعلق منها بما قبل السقراطيين، إلى اكتشاف أهمية تحويل الإغريق لكل شيء إلى حياة، في الوقت الذي يبقى فيه عندنا مجرد معرفة[31] وإلى الانتباه إلى جوانب شتى، جعلته يحتاط من المعرفة ويتحدث عن "صراع المعرفة مع المعرفة!"[32] ، ومن أمثال هؤلاء: پارمينيد Parménide الذي كان يقول: "لا تكتفوا فقط بالاتكال على الرؤية الفظة ولا على السمع المصم ولا على اللغة ولكن اخضعوا الأشياء لامتحان قوة الفكر الوحيدة"، وبهذا يكون قد قام بأول نقد للجهاز الإدراكي، نقدا في غاية الأهمية رغم نقصه الكبير وعواقبه الوخيمة. وفعلا بفصله وبضربة واحدة، الحواس عن ناصية التفكير التجريدي، أي العقل، وكأن

الأمر يتعلق بناصيتين مختلفتين تماما، يكون قد دمر الذهن نفسه ودفع إلى الفصل الساخر بين الـ"روح" والـ"جسد"[33].

لقد كان نقد نيتشه لسقراط في العديد من مؤلفاته[34] مبني على هذه الفكرة الأساسية في فلسفته: أسبقية الحياة على كل تفسير، وفي هذا يكمن تاريخ خطأ الإنسان الأصلي. ومن ثمة "فنحن عائدون إلى السلوك الطبيعي(سلوك الإغريق) عبر انحراف كبير، لأنّه ثبتت استحالة بناء حضارة على المعرفة"[35]. حضارة نصبو لبلوغها بواسطة أدوات صنعناها نحن، ومثال ذلك: الإجراءات الفنية في البلاغة (كالكناية والاستعارة والمجاز المرسل، إلخ)[36] مما أوقعنا في فخ القواعد (ميتافيزيقيا الشعب هذه)"[37] وجعلنا نصنع هذا العالم الذي نؤمن به ونحسبه بمنطقنا ورياضياتنا وسببيتنا... ولا نتفطن إلى أنّه "حتى الكائن الأكثر حكمة يحتاج، من حين لآخر، إلى العودة إلى الطبيعة، أي إلى **علاقته الأساسية اللامنطقية مع كافة الأشياء"[38]**. "ذلكم قدر الإنسان(...) تدفعه الحقيقة إلى اليأس والانهيار: حقيقة وجوده كمحكوم عليه أبدا باللاحقيقية. غير أنّ الإنسان يكتفي بإيمانه فقط بالحقيقة الممكنة وبالوهم القريب الذي يلهمه الثقة المطلقة. وفي العمق، ألا يعيش **بفضل الوهم** الدائم الذي يتلقاه؟ ألا تخفي عنه الطبيعة أغلبية الأشياء وخاصة أقربها

منه، كجسده الذي لا يملك عنه سوى "وعيا" استشباحيا؟ إنّه سجين هذا الوعي، والطبيعة رمت بالمفتاح بعيدا"[39].

ومن هنا فالإنسان جزء من الطبيعة ومهما فعله بعقله أو حواسه التي يقيس بها والتي لا تتعدى آفاقها[40] فإنّه "أكثر قردية من أي حيوان آخر"[41].كما أنّ "العالم، في حدود قدرتنا على معرفته، ليس سوى نشاطنا العصبي الخاص بنا لا أكثر"[42].

إنّ الحياة إرادة قوة و"الإرادة وحدها لا تفني"[43]، وأن يحيا الكائن هو أن يقدر ومن هنا كانت كل إرادة تقديرا بل وحتى في "**العالم الأصغر**"، حيث لا توجد الإرادة، يمكننا اعتبار الازدياد والتناقض المستمر لومضات إرادت القوة بمثابة تقديرات أيضا[44].

– التفسير السيكولوجي

نشأة اللغة:

"لأنها نتيجة منطقية لفترات جد طويلة، فإنّ اللغة لم تنشأ دفعة واحدة"[45] وقد سبقها "تقليد الحركات، الذي يتم بطريقة لا شعورية والذي، رغم تراجع مفروض عموما على الإيحاء ورغم اكتساب التحكم في العضلات، لا يزال قويا إلى أيامنا هذه لدرجة أننا لا نقدر على النظر إلى حركات الوجه دون تلقى إثارة على وجوهنا(ويمكننا مثلا أن نلاحظ أن تثاؤبا متصنعا يثير تثاؤبا طبيعيا لدى من يراه).

يعيد تقليد الحركات المقّلد إلى الشعور الذي تجد تلك الحركات تعبيرها فيه على وجه أو جسد الشخص الذي تم تقليده، وبهذه الكيفية تعلم الناس التفاهم في ما بينهم وبها لا يزال الطفل أيضا يتدرب على فهم أمه. وعموما تمكنت أحاسيس بالألم من أن تجد تعبيرا لنفسها أيضا في حركات تسبب بدورها آلاما(كاقتلاع الشعر وضرب الصدر وليّ وعقد عضلات الوجه بعنف). وخلافا لذلك، تتضمن حركات المتعة في حد ذاتها لذة لتتلاءم بذلك بسهولة مع تبليغ الفهم (الضحك،رد الفعل على الدغدغة، الذي هو أمر مريح ويؤدي أيضا إلى إثارة أحاسيس مريحة أخرى). وما أن يتفاهم الناس بواسطة الحركات، فإنه يصبح بالإمكان أن تنشأ رمزية للحركات: أعني أنّه يمكن للناس أن يتفاهموا بواسطة لغة توفق بين الإشارات والأصوات بدءً، في الان نفسه، بإنتاج الصوت والحركة (التي تنضاف

إليه كرمز).وعادة ما يبدو أنه في هذا ، وإبان الأزمنة القديمة، حدث الأمر نفسه الذي يحدث الآن أمام عيوننا وآذاننا في تطور الموسيقى، وخاصة الموسيقى الدرامية: في الوقت الذي كانت فيه الموسيقى في البداية، وبدون تعليق من الرقص والإيحاء، مجرد ضجة فارغة، فإنّه حدث وأن تروّضت الأذن، بواسطة تعوّد طويل، على هذه الموازاة بين الموسيقى والحركة، على التفسير المباشر للأشكال الموسيقية والانتهاء إلى السمو إلى درجة من الفهم السريع يجعلها في غنى تام عن الحركة المرئية وقادرة على **فهم** الموسيقى بدونها. وهكذا صار الناس يتحدثون عن الموسيقى المطلقة أي عن موسيقى تفهم رمزيا بسرعة دون الحاجة إلى مساعدة أي شيء آخر"[46].وقد كانت بداية اللغة، طبيعية، أوجدتها "الحاجة إلى الاتصال"[47] ذلك أنّ الإنسان "كائن مجبر، أكثر من غيره، على الاعتماد على أمثاله"[48]. كما أنّه يحدث وأن تدفعه الضرورة والملل لأن يعيش في جماعة وفي قطيع ويضطر لعقد صلح والتصرف بالكيفية التي تزيل الطابع الفظ للغاية، لصراع الجميع ضد الجميع ***bellum omnium contra omnes*** من عالمه."[49] وباعتباره الحيوان الأكثر عرضة للمخاطر، **كان في حاجة** إلى العون والحماية، كان في حاجة إلى أمثاله، وكان مجبرا على

معرفة كيفية التعبير عن حزنه، معرفة كيفية جعل نفسه قابلا لأن يفهم[50]، و"كلما كان الخطر كبيرا كلما شعرنا بالحاجة إلى التفاهم، بسرعة وبدون عناء، بشأن ما يلزم القيام به؛ أمام الخطر [الداهم]، لا بد للناس أن يتفادوا، قبل كل شيء، كل سوء فهم بينهم، وفي كل صداقة وكل محبة نقوم بالتجربة ذاتها"[51]. وفي المجتمع، أخذ الانسان يتعلم كيف يكون واعيا بنفسه فقط، مثلما لا يزال وسيبقى يفعل ذلك، رغم أنّ محتوى ذلك الوعي مرتبط بالمجتمع والقطيع اللذين يعيش فيهما، وفي هذا يتضح أن الوعي مفصول عن اللغة، فكيف يتم ذلك؟

"يفكر الإنسان، كأي كائن حي" باستمرار لكنه لا يعرف ذلك، وفقط جزء بسيط للغاية من ذلك التفكير، أي الجزء الأردأ والأكثر سطحية، يصبح واعيا وهو الجزء الذي **يتم في شكل كلام، بمعنى في إشارات اتصال**، وهكذا يكشف الوعي عن نفسه بواسطة اللغة ولذلك كان دائما مبدع الإشارات أكثر الناس وعيا بذاته مما يبين بوضوح أن الوعي لم يتطور بكيفية حاذقة سوى في علاقته بمدى نفعيته

للمجموعة والقطيع، مما جعله "وسيلة"[52] تنطوي على محتوى غير فردي، أي على شيء يميز الجماعة"[53] ولذلك "يبدو أنّ اللغة لم تبتدع سوى لأجل الأمور الحقيرة والمشتركة والقابلة للتواصل. فالإنسان الذي يتكلم **يجعل نفسه مبتذلا** بواسطة اللغة"[54].لأنّه بمجرد[بداية] وعينا فإنّ فسادا عميقا وتزويرا وتسطيحا وابتذالا يحدث[ينجم عن ذلك]"[55] ، ولأنّه "لابد للمرء أن يكون حقيقيا، أي أن يستخدم المجازات المألوفة(...) الكذب وفق اتفاق جاهز، الكذب في قطيع بأسلوبٍ كل الناس ملتزمون باستعماله(...) انّه يكذب إذن لا شعوريا(...) ملتزما بأعراف تعود لمئات السنين(...) ومن هذا **اللاشعور** ذاته(...) يبلغ الشعور بالحقيقة"[56].

وباختصار فإنّ "الوعي آخر تطور جد متأخر للحياة العضوية، ومن ثمة فهو الأقل اكتمالا والأكثر هشاشة"[57]؛ ذلك أنّ "التفكير ليس سوى العلاقة التعاضدية بين الغرائز"[58] أو على الأقل "على الجزء الأكبر من التفكير الواعي أنُ يعزى إلى النشاطات الغريزية، حتى لو تعلق الأمر بالتفكير الفلسفي نفسه"[59].وإذا حدث وأن "تراخت حيوية الفرد وأحس بنفسه مريضا أو متعبا، قلقا أو متشبعا، فإنّه يضحى مؤقتا محروما من رغبات وشهوات ويصبح نسبيا كائنا أفضل، أي أقل إضرار ولن تعود تمثلاته[تصوراته] تصاغ سوى في كلمات وتخمينات(...)ولكنه مهما كان قادرا على تخمينه، فإنّ كافة منتجات عقله تعكس بالضرورة حالته، أي صعود الخوف والوهن،

وتراجع تقديره للتصرف والاستمتاع"[60]. وبهذا "فالعقل نشاط عضوي لدى الضعفاء، يبرر أفول الحياة"[61] لأنّه "خلف كل منطق وكل حرية حركته الظاهرة، تنتصب التقديرات" وبلغة أوضح "متطلبات فيزيولوجية تصبو لحفظ نمط حياة معين"[62].

تفكيك اللغة (في موضوع التفسير السيكولوجي):

1-المصير: تجنح ملكة التفكير لدى الإنسان لإثبات الاستقرار الشامل لأنّها تأخذ مصدرها من صور، أي أنّها لم تنتظم لتصور المصير، مثلما سبق وأن أشرنا إلى هذا، ولأنّ إرادة القوة لا تنبع من الأنا الواعية بل من القوة الحيوية غير الواعية[63]،كما أنّه لما كانت كل إرادة تقديرا، فإنّه "في غياب وجهة نظر محددة، يستحيل الحديث عن قيمة شيء ما، وبعبارات أخرى، فإنّ التأكيد المحدد لحياة معينة يحدد الشرط المسبق لكل حكم"[64]ولذلك "فالقيمة الأعلى للوجود لا تكمن في نتيجة حقيقة عرفت بل إنّها **الشرط المسبق** للمعرفة"[65]، وعليه كان "الإدراك"، أي الشكل الأكثر بدائية للتمثل، بمثابة **اعتبار "الشيء" على أنّه حقيقي** والقول له نعم، مما يجعل مضمونه فعلا un acte بشكل أساسي أي فرض لأشكال[66]. وقد ظل الإنسان مبدع أشكال لفترة طويلة قبل أن يتمكن من ابتداع المفاهيم[67] أي أنّه بدأ "بتمثل أحاسيس جديدة ثم شعرنة الأحاسيس في صور ثم تعبير الصور في كلمات"[68].وبلغة أوضح نقول أنّه لما كانت الحياة تتجاوز نفسها بالاستمرار من خلال تقديرات الإرادة، أي أنّها مصير وسيرورة وتطور...إلخ، فإنّ الكائن ظل دائما "يجد كفاية لنفسه في الظاهر التام"، الظاهر كبعد للمصير، مما يبين أن اندماج الكائن والمصير خاصية لـ "ذروة إرادة القوة" وذروة التأمل[69]؛ومن جهة أخرى أن "الحياة تنفلت من كل إمكانية للقبض عليها بالمفاهيم"[70].

2-سيرورة تشكل اللغة: (أو تأكيد الإنسان للشكل لعدم قدرته على إدراك الحركة المطلقة الأكثر رفعة)[71].

في واحدة من مجموع المقدمات الجديدة التي وضعها لكتبه القديمة، أشار نيتشه إلى أنّه حاول في "**ميلاد المأساة**" "**تناول العلم من منظور الفنان والفن في منظور الحياة**"[72] وتدل أولى كتاباته وخاصة "**كتاب الفيلسوف**" والنصوص المعاصرة لها، على أهمية وأولوية الفن في الحياة علىكافة أشكال المعرفة الأخرى، حيث يتعرف "فيلسوفه الأخير" على "لغة الطبيعة" ويقول:"نحن في حاجة إلى الفن، ولا يلزمنا سوى جزء من المعرفة"[73]. وقد تحدث نيتشه في هذه النصوص

بصفة خاصة عن "قوة فنانة" و"سيرورة فنانة"[74]، مثلما تحدث في نصوص أخرى عن شيء مشابه كالقوة **الشاعرية** أو الغريزة الشاعرية[75] وهي كلها سيرورات تعكس "الطابع السطحي لخاصية التفكير" لدى الإنسان وحاجة هذا الأخير، إلى الفن في كل لحظة، أي إلى ما يجعل حياته ممكنة في ظل تيار السيرورة المتدفق، لأنّ "الفن يستند إلى عدم دقة الرؤية"[76] ولأن وسيلة"القوة الفنانة" تلك تكمن في "الإغفال وعدم الرؤية وعدم السماح، إنّها أيضا لا علمية: لأنّها لا تولي أدنى أهمية لأي مدرك"[77]، ومن ذلك "ميل الإنسان نحو السماح للغير بتغليطه"[78]. بل إنّه يسمح لنفسه لأن تغلطه أحلامه طوال حياته دون أن يبحث حسه الأخلاقي عن منعه[79]، ثم ما هي التراجديا إن لم تكن في الأصل موسيقى؟ أليست الموسيقى عودة إلى الطبيعة وفي الوقت ذاته تطهير وتحول للطبيعة؟[80]، ألا نرى في شعر الغناء الشعبي كيف تجنح اللغة بكل قواها نحو **تقليد الموسيقى؟**[81].الموسيقى كتعبير رمزي للتناقض والألم الأصليين، والتي لن تقدر اللغة لا على إبراز، وبشكل ظاهري، منشأها الأصلي والعميق ولا على استنفاذ رمزيتها[82] إنّها لغة الإرادة على حد تعبير شوبنهاور[83]Arthur SCHOPENHAUER. وهكذا يقودنا البحث في موضوع اللغة(في علاقته مع السيرورة) أي في مراحل صياغة المفاهيم–أو الوسيلة التي يحاول الإنسان أن يشرح بها تغيرات الطبيعة، ومن ثمة أن يبرر ديمومة أحكامه لأن كل كلمة وكل مفهوم أحكام– من جديد إلى النقطتين الأساسيتين: الحياة والفن.

يستند بحث نيتشه في البناء اللاواعي لسيرورة تشكل اللغة إلى الحياة والفن في علاقتهما مع المصير. وقد بيّن أنّ "البشرية فنانة" [84]برمتها، وأنّ فن أناسها درجات[85] وأن ميلاد الفن جاء كاستجابة لضرورات حيوية لأنّه يعكس دائما "حالة ممتعة لأنفسنا"[86].وتنطوي كلمة فن في هذا السياق على سيرورات شتى ك:...المجاز....الموسيقى....الاعتقاد....الوهم...الخ تبين كلها أنّ الإنسانية لم تنتج في تاريخها، وبتعدد لغاتها سوى "مصيرا كاذبا" و"شكلا آخر للواقع" ومن ذلك كان كل التاريخ، الذي سبق نيتشه، تاريخا للخطأ، الخطأ الذي انتقد نيتشه أسسه، رغم أنّه يرى في الوهم والاعتقاد الخاطئ و...ضرورات للحي لأنّ " الفن أقوى من المعرفة لأنه هو الذي يريد الحياة بينما لن يكون الهدف الأقصى الذي تبلغه المعرفة، شيئا آخر بغير الإفناء "[87]، لذلك لا بد من التحكم في العلم بواسطة الفن، الذي عليه أيضا أن يعيد بمفرده الحياة إلى العالم[88].

الاعتقاد كأرضية: تتفق الدراسات الحديثة مع نظرية نيتشه في نشأة وتطور اللغة وفي كونها سلسلة "معجزات"* تبدأ بالحركات والإشارات الإيحائية إلى أن تصل الأفكار، وباعتبار إدراك الإنسان قوة سطح[89] فإنّه ابتدع التجريد، ومن ثمة يمكن إجمال مصادر اللغة في:

1-الاعتقاد الأولي:حيث " تعلمنا الكيفية التي شعر بواسطتها المولدون الجدد بالمؤثرات وحكموا على الواقع الخارجي بشأن **المبدأ الذي يحفظ الحياة** الذي انصاعوا له.[ومن ثمة] فالاعتقاد الذي يسمح بالبقاء هو الاعتقاد الذي انتصر ودام وليس الأكثر صدقا بل الأكثر فائدة[90] لقد كان ذلك الاعتقاد بمثابة "تخيل سعيد"[91].

2-"القوة الفنانة": أو الحالة الجمالية التي تمتلك ثراءً فياضا من **وسائل التعبير** وفي الوقت ذاته استقبالية قصوى للمؤثرات والإشارات.إنها ملؤ المزاج التواصلي وإمكانية ترجمة الذات لدى الكائنات الحية- إنّها مصدر اللغة وهنا تجد التعابير مكمنها الأصلي: التعبير بالشفاه والحركات والنظرات والظاهرة الأكثر كمالا هي دائما الظاهرة الأصلية: استعداداتنا جوهر لاستعدادات أكثر سعة، وإلى الآن لا زلنا نسمع ونقرأ بالعضلات[92].

3-تقليد الظاهر: ليست كل منتجات اللغة، من قواعد ومنطق وسببية وكلمات ومفاهيم...إلخ، وحدها تقليد لمظاهر حالات سابقة لها بل إنّ الموسيقى أيضا، كتعبير، "تقليد غير مكتمل" لظاهرة الإرادة[93]. ومن هذه العناصر الثلاث يبرز لنا الصوت والحدس والصورة(أو الشكل) والمفهوم والكتابة(كميدان يسجل فيه الخطاب الشفاهي) وباقي الأشكال التي تبلغها "القوة الفنانة" وهي كلها عناصر تستند إلى الاعتقاد(الناجم بدوره عن الإحساس والذاكرة)[94] وتعبر عن بنية الجسد الفيزيولوجية وعن إرادة القوة حيث يجرنا مثلا تحليل دوافع الفعل لدى الإنسان إلى اكتشاف أن "الفعل نصر لأن الإنسان لا يتصرف لأسباب مرتبطة بالسعادة أو المنفعة ولا لكي يدافع عن نفسه ضد الألم، بل لأنّ كمية معينة من القوة تنفق نفسها وتستولي على شيء لتشفي غليلها فيه"[95].

لم يكن صانع اللغة جد متواضع لكي يؤمن بأنّه لا يفعل شيئا بغير إعطاء دلالات للأشياء ولذلك ظل الإنسان، ولفترات طويلة يعتقد أن أسماء الأشياء والأفكار حقائق خالدة[96].فإذا تناولنا مثلا الكلمة فإننا نلاحظ أن لها مميزات الحادثة التاريخية(أي أنّها فريدة من نوعها ولها زمن

ومكان معينين وتعرف بطريقة غير مباشرة، باستثناء الكلمات التي يبتدعها أصحابها) حيث يتم إسقاطها على عدد لا

حصر له من الحالات التي تشبه الحالة الأصلية الأولى التي أعطيت لها كإسم، ولما كان التشابه اختلافا[97] فإن الإنسان أعتقد بوجود أشياء في العالم الواقعي، كهوية الشيء ذاته في نقاط زمنية مختلفة وتساوي الأشياء...، وهو الاعتقاد نفسه الذي استند إليه حين أوجد الرياضيات والمنطق...إلخ[98]، وطبعا لا يعيب نيتشه على الإنسان في هذا شيئا مادام "من مرحلة التعضيات الدنيا ورث الاعتقاد بوجود أشياء متماثلة(...) ونحن، الكائنات العضوية، لا شيء في البدء كان يعنينا بشأن كل شيء سوى علاقته بنا في ما يثيره لدينا من متعة أو ألم"[99] ومن ثمة لا بد من استعمال اللغة للدلالة على الحالات والحاجات، وقد كانت المفاهيم بذلك إشارات استطلاع[100] وكان كل "إدراك" بمثابة اعتبار للشيء على أنّه حقيقي[101]، والحقيقي بلغة الفيزيولوجيا درجة شعور أي أنّه في تشديد الشعور بالقوة يكمن معيار الحقيقة[102].

تغليط الحواس لنا:

تفتح هذه النقطة المجال أمامنا للحديث عن الاعتقاد الكامن في عملية التبسيط التي تقوم بها الذاكرة والحواس، أي حيث يكمن منشأ الأشياء[103]، ومصدر كل تاريخ أخطاء اللغة ومنها بصفة خاصة "العقل" الذي طوّر على أساس حِسّوي، على **الأفكار المسبقة لدى الحواس**،أي على الاعتقاد بصدق أحكام الحواس[104]ومثل ذلك حاستي الرؤية والسمع اللتين تسجنان صاحبهما خلف أسوار سجن آفاق وحدود ومنظوريات محددة، فسواء كانت ثاقبة أم ضعيفة، فعينايا لا تريا سوى على مسافة معينة، ولو كانتا ثاقبتين مائة مرة في رؤيتهما للأشياء القريبة فإنّ الإنسان كان سيبدو لي هائلا، وكذلك تفعل باقي الحواس، أي أنّها تحبسنا في مجال ضيق ولا تستجيب سوى لسلسلة محدودة من المؤثرات.وانطلاقا من تلك الأفاق نقيس العالم ونقول عن الأشياء أنّها قريبة أو بعيدة، كبيرة أو صغيرة، صلبة أو رخوة، ونسمي كيفية القياس هذه "شعورا"، وهذا خطأ؛ ثم إنَه انطلاقا من عدد الأحداث والانفعالات التي تكون ممكنة في المتوسط وفي حيز

زمني معين، يقيس المرء حياته ويقول عنها أنّها قصيرة أو طويلة، غنية أو فقيرة، ثرية أو فارغة، وهذا خطأ أيضا[105]. ومن أوضح عواقب مثل تلك القياسات: "حديث الناس عن تناقضات حيث لا وجود سوى لدرجات وتغيرات رفيعة"[106]ومراحل انتقالية كالتعارض بين ساخن وبارد مثلا(رغم أنّ هيراقليط مثلا كان يفسر ما نسميه بردا على أنّه درجة من الحرارة)[107]. مما أوجد الرغبة في الفهم والفصل انطلاقا من هذه الأضداد[108].

"لقد علَبتنا تعودات حواسنا في نسيج من الأحاسيس الكاذبة والتي، بدورها، إليها تستند كافة أحكامنا وكافة "معارفنا"(...)إننا نقبع كالعناكب في نسيجنا ولا نقدر على صيد سوى ما نسمح له بأن يقع في شبكتنا"[109].لأنّه "من السطحية الحديث عن انطباعات حسية لأننا ببساطة لم نتلقها بل نحن من أعطاها شكلها وإيقاعها، مادامت التجربة ممكنة فقط بمساعدة الذاكرة"[110]، ومثال ذلك أننا "لا نرى الصورة الموجودة في العين سوى في **ذواتنا** ولا نسمع الصوت سوى في ذواتنا"[111]، أي "إننا لا نملك حاليا من العلم سوى ذلك الذي يوافق قرارنا بقبول شهادة حواسنا، أين لا نزال نشحذها ونسلحها وأين تعلمنا الذهاب إلى آخر معرفتها"[112].

إنّ إدراكاتنا الحسية لتستند إلى استعارات (مثلما سيلي بعد قليل)وليس إلى تفكير غير واع وتكمن السيرورة الأصلية التي تعيش عليها **الذاكرة** وتفعل فعلها فيها باستمرار، في التعرف على المثيل بواسطة المثيل واكتشاف شيء من الشبه بين شيء وآخر، ومن ثمة فالظاهرة الأصلية هي اللبس، أي ما يفترض فعل رؤية الأشكال[113]. لقد ظلت الفرضيات غير الناضجة، الاختلاقات، الاستعداد الأحمق لل"إيمان"، غياب الحذر والصبر، هي التي تتطور في أول الأمر؛ وفقط لاحقا جدا تتعلم حواسنا، أو لا تتعلم كلية أبدا، كيف تكون أعضاءً وفية ورفيعة وحذرة للمعرفة.عيننا لا تجد صعوبة في إعادة إنتاج صورة سبق لها وأن أنتجت عدة مرات، من حفظٍ ما لانطباعٍ ما من مختلف وجديد؛ لا بد لذلك المزيد من القوة وال"أخلاقية".إنّه من الصعب والمتعب لأذن أن تسمع شيئا جديدا، فحين نسمع لغة مجهولة فإننا نبحث لا إراديا عن كيفية إلصاق كلمات مألوفة عندنا وقريبة منا على المقاطع اللفظية التي سمعناها(...) واليوم لا يقرأ القارئ كافة الكلمات، واقل من ذلك كافة المقاطع اللفظية لصفحة واحدة.إنّه يستخرج ربما 20/5سهوا و"يفك"

المعنى التقريبي الذي يوافقها، ونحن اليوم أيضا لا نرى شجرة على حالتها الصحيحة والشاملة، بأوراقها وأغصانها ولونها وشكلها، إنّه من السهل علينا أن نبتدع شبه شجرة تخيلية. ونحن نتصرف كذلك بنفس الكيفية في حضور الأحداث غير المألوفة جدا، حيث نبتدع الجزء الأكبر منها ونكون بالكاد قديرين على عدم الإسهام ك "مبدعين" لأية ظاهرة. كل هذا يعني أننا أساسا وفي كل الأوقات **تعودنا على الكذب** [...] أي أننا فنانين أكثر مما تعتقد أنفسنا". [114]

تدل أسئلة من نوع: "كيف لنظرة نيتشه أن تكون صحيحة حين يكون كل موجود مجرد منظوريات؟"[115]أو "ألسنا هنا أيضا ألعاب عالم سبق تصوره من قبل نيتشه؟"[116]...إلخ على قدرة نيتشه على الذهاب عميقا في أغوار النفس البشرية ليس لشرح سيرورة نشأة ما نسميه لغة فحسب بل لتأكيد نظرته المبنية على النتائج التي بلغها على ضوء دراساته الفيلولوجية وخاصة تلك المتعلقة بالإغريق ومنها ميلاد المأساة التي وجد فيها عملا فنيا عظيما بلغ بواسطتهما الإغريقي الحالة الديونيزية (قوة الانفعال) عبر أبولون(قوة العقل)، أي عبر عنصري القوة اللتين تعكسان التوجه الفطري للتعبير عن تأكيد صارم لكافة قوى الإنسان (إرادة القوة) [117]، وقد كانت الموسيقى بمثابة الفن القادر على التعبير عن الحالة الديونيزية، أي التعبير الرمزي عن التناقض والألم الأصليين الكامنين في الواحد- الأصلي l'Un-primordial، ومن ثمة عن عالم موجود قبل كل ظاهرة،ويحوم فوق كل ظاهرة[118] ومن ذلك بلغ نيتشه واحدة من أعمق أفكاره: والتي ترى "أنّه فقط انطلاقا من كونه ظاهرة فنية يمكن للوجود أن يجد لنفسه تبريرا،إنه فقط بعيون الفن يتمكن المفكر من الإلقاء بنظره في قلب العالم، في حين أن الفن **التراجيدي** بشكل أساسي، التراجديا القديمة، هي التي لها هذه النظرة الثاقبة[...]لأنّ الشعور المأساوي للحياة هو القبول بالحياة"[119]ولذلك "فقد صيّر الفن أورغانونا للفلسفة وعدّه الدرب الأكثر جدية والأكثر أصالة لأجل الفهم الأكثر أصلية"[120].لأنّ اللغة تحنّط المجازات في مفاهيم وتفقدها طبيعتها الحقيقية[121].ومن ثمة كان مثل السؤالان اللذان طرحناهما منذ قليل ينمان عن محاولة فاشلة من أصحابه تطبيق قواعد البحث في

اللغة على الفن، أو ما أسماه هارتمان "منظومة المجازات اللامحدودة"، والتي قادته إلى أن يعتبر كل أفكار نيتشه الجوهرية كمجازات[122].

لقد سعى نيتشه منذ البداية إلى جعل لغة الفلسفة مسجلة ومكرسة في حياة الفيلسوف ورأى أن "أرقى حياة وأنقاها تكمن في امتلاك الحقيقة متضمنة في الاعتقاد"[123].أي أنّه على عمل الفيلسوف أن ينبني على اكتشاف وإبداع أشكال حياة جديدة تسمح بوجود أقصى. ولن يكون هذا ممكنا سوى بواسطة تجارب ومحاولات ومبادرات متجددة باستمرار[124].أي بواسطة الفن مما يكشف عن ارتباطه بالفلسفة والحياة ويجعل النص المكتوب مثلا أثرا لمغامرات تترجم محاولة شخصية استثنائية تكتب بدمها[125].لـ"تفكر الشكل كمحتوى" فيضحى الكل بذلك تعبيرا عن ارتباط القيم الأرستقراطية بالتراجيديا[126].

وهكذا وبعدما حاول نيتشه تجاوز اللغة –باعتبارها إرثا يتقاسمه الجميع ويذوب فيه إبداع المتميز، ومظهر العالم المتضمن في مكونات اللغة وبصفة أخص الكلمات والمفاهيم التي أوجدها الاعتقاد والتخيل السعيد وعمل التبسيط الذي تقوم به الحواس...– ومن ثمة تجاوز المصير، ها هو يعود إليه من جديد، ولكن بلغته الخاصة، مهما كان ولع الكثيرين به ومنهم مورغان G. Morgan، ويعرفه على أنه "إبداع ورغبة وإنكار وتجاوز للذات(...) لم يصر لأنه مصير بلا بداية ولن يكون صائرا كلية أبدا لأنّه مصير بلا نهاية"[127]. ومن هنا كانت أهمية الذين يطلقون التسميات لأول مرة les nomeurs لدى نيتشه باعتبار كل تسمية تجربة جديدة.

لقد سعى نيتشه إلى تقييم التطور البشري بلغة تتجاوز عالمي الظاهر والباطن، اللذين" أرادت الـ"أنا" أن تضع[تلد] إلهها [فيهما] ثم تضع العالم عند قدميه"[128]،إلهها الذي نجمت عنه أخلاق انحطاط "لا تلتقي بالواقع في أي نقطة من النقاط. إذ لا وجود هنا سوى لأسباب تخيلية("إله"، "نفس"، "حرية اختيار"، وحتى "عبد الاختيار")، سوى **لمفعولات** تخيلية("خطيئة"، "خلاص"، "عناية"، "تكفير"، "غفران الخطايا")، سوى علاقات بين **كائنات** تخيلية ("إله"، "أرواح"، "نفوس")، سوى علم **طبيعة** تخيلي (مركزية البشر في الكون ، غياب تام لمفهوم السبب الطبيعي)، سوى **علم نفس** تخيلي (أنجز من سوء فهم الذات، من تفسيرات بالصدفة للأحاسيس الممتعة وغير الممتعة مثلا لحالات **السعادة العصبية** بواسطة لغة رمزية خاصة بالمزاج الديني

والأخلاقي ("ندم"، "وخز الضمير" ، "إغراء الشيطان"). يتميز هذا العالم **الخيالي** [...] عن عالم الحلم في كون هذا الأخير **يعكس** الحقيقة في حين يزوّر الأول ويقلل من قيمة الحقيقة وينكرها"[129]، ثم إن ايتيمولوجيا اللغة وتاريخها علمانا اعتبار كافة المفاهيم على أنها **صارت** وكثير منها لا يزال يصير لدرجة أن المفاهيم الأكثر عمومية،باعتبارها **الأكثر غلطا**،لابد وأن تكون الأقدم[130]. لابد أنه تأثر بعصره وبقراءاته، فقد ذكر هاينريش مان فكرة لمونتانMontaigne، لم يستبعد أن يكون نيتشه قد اطلع عليها، يقول فيها "أن العقول الجيدة لا تجلب للغة أية كلمة بل إنها تثري فقط مفرداتها هي، تتعلم وتعمق معانيها واستعمالها، تعلمها حركات غير مألوفة ولكن بحذر وكيفيات بارعة"[131].كما يمكننا أن نذكر بعض الأفكار التي تعكس روح العصر ومدى تقدم العلوم مما يسهل على نيتشه عملية النقد لأنّه اكتشف أنها تستند كلها إلى محاولة أصحابها وضع "اقتطاعات" في السيرورة ومن ثمة خلق أشكال وصور، ومثل ذلك هذين القولين التاليين:

– " نحن لا نعرف بشكل واضح تمام سوى قانونا واحدا، قانون الثبات والانتظام .هذه هي الفكرة البسيطة التي نريد أن نرد إليها الأخريات، وإنّه فقط في هذا الرد يكمن العلم بالنسبة لنا"[132].

– "كلما زاد اهتمامي بدراسة الظواهر، كلما لاحظت الانتظام والاتفاق في السيرورات النفسية"[133]؛ وهناك أمر ثالث ويكمن في أن اللغة الألمانية "توفر فرصا غير محدودة" لمبدع الكلمات المركبة الجديدة كـ"حقراء الثقافة" Bildungsphilister و الحاصلين على أسوأ ما في الصفقة Schlechtweggekommene وغيرها"[134].

خاتمة :

بنفس القدر من الاندهاش، لعمق الجوانب التي تناولها نيتشه في موضوع اللغة، يجد الباحث نفسه، عقب انتهائه من قراءة نيتشه، أمام جملة أسئلة جوهرية وشديدة الارتباط بمنهج وفلسفة نيتشه برمتها، وتكفي الإشارة المباشرة والمختصرة مثلا للتدليل على ذلك: ففي موضوع اللغة انتهينا إلى ما يمكننا أن نسميه "تطور الذاكرة" واستمرارها كطابع للثقافة الاجتماعية، فبعدما كانت الذاكرة خاصية أصلية ولا علاقة لها بالمخ والأعصاب إلخ، لأن الإنسان يحمل في ذاته

ذاكرة كافة الأجيال السابقة[135]صارت، بعد تحول الإنسان إلى منتج للثقافة، فردية وفق ضوابط اجتماعية- أو لنقل، مقتبسين من نيتشه، أنّها تنم عن رد فعل يستجيب لضرورات تقتضيها حاجات القطيع- ومن ثمة لم تعد الأجيال قادرة على توريث نسلها تلك "الخاصية الأصلية"[الشكل الأول من الذاكرة] بل قادرة فقط على تعليمها وتدريبها وتمكينها من الاقتباس والتقليد أو حتى على إرغامها بالإديولوجيا على إتباع ما تراه مفيدا للجميع[136].ففي إحدى فقراته، ذكر نيتشه " أنّ البعض لا يتمكن من أن يصير مفكرا لأنّ ذاكرته قوية"[137] وأنّ " العاقل لا يحتاج بتاتا لأن يخمن كما أنّه لا يملك من التخمين سوى اليسير".[138] ومن هذا تبرز ميزة العاقل وصاحب الذاكرة القوية كدرجة فردية في القدرة على الاستفادة من الماضي. ولما كانت هذه الذاكرة تعيش على اكتشاف التشابه بين الأشياء أي أنّها ذاكرة تعمل بالصور أو المجازات[139]فإن التساؤل البديهي الذي يفرض نفسه علينا هو: كيف لنيتشه، الذي لا يرى في اللغة سوى سيرورة مجازات، أن يعترف بالحقيقية التاريخية؟ وماذا عسى الحقيقة التاريخية أن تكون؟ يجرنا تناوله لأهم مكونات اللغة إلى معرفة أن " الكلمات دلالات صوتية على المفاهيم، والمفاهيم هي الدلالات المجازية المحددة تقريبا والتي وضعت للتعبير عن أحاسيس ومجموعة أحاسيس تنتج بعضها البعض في غالب الأحيان وتصادف بعضها البعض في معظم الأوقات"[140]، ومن ثمة فـ" الكلمات والأصوات أقواس قزح وجسور وهمية بين الموجودات المنفصلة إلى الأبد"[141]، وأنّ "الحقيقة عدد متحرك من الكتابات والمجازات والأنسنات، وباختصار جملة علاقات بشريةُ رُفعت، أُسقطت، زُحزحت بالشعر والخطابة ثم ظهرت وكأنها مبنية، قانونية وملزمة في عيون شعب ما، بعد استعمال طويل: الحقائق أوهام نسينا أنّها كذلك، مجازات استعملت وفقدت قوتها المحسوسة، نقود فقدت صورتها"[142] ومن هذا تبرز أسئلة لا تقل أهمية عن الأولى مثل: كيف يمكن

للعقل، الذي يسمح لصاحبه بأن يفكر في الوقت نفسه ذاته وتاريخه، الذي ليس سوى مفعولا له،[143] أن يمتلك معيارا يتعرف بواسطته على نفسه خاصة إذا عرفنا أن كل موجود أضحى في نظر نيتشه، مجرد منظوريات؟ ألا يريد نيتشه أن يعيدنا إلى تاريخ الإغريق القديم حين كانوا، أكثر من غيرهم من الشعوب، يرون أن أساس فهم الإنسان لنظام العالم هو استعمال خطاب منظم ومفهوم، الخطاب الذي خرجت منه كلمةlogos التي تعني الكلمة المنطوقة والحكمة معا،

الخطاب المفهوم ونظام الأشياء أيضا؟[144] ثم وحتى لو إفترضنا ذلك، ألم ينتج عالم ما بعد سقراط ذلك؟ أليس العالم " بخير" رغم انتقادات نيتشه اللاذعة له؟

رغم أن نيتشه علق على أعلى بابه فقرة تتضمن عبارة " لم أقلد أحدا"[145] ورغم أنّه حاول في كثير من المرات صنع لغته الخاصة به[146]إلاّ أنّ البحث في موضوعي التاريخ والثقافة و ربطهما "بلغته" تلك لا يبدو أنه سيسمح لنا بتجاوز "الرسم المفاهيمي للعالم، الذي صنعته الفلسفة الكلاسيكية"[147] الذي انتقده نيتشه. لا شك أنّ نيتشه بلغ مداه في هذا وإنّ المطلع على بعض ما كتب عنه ليفهم بسرعة لماذا انتهى بعضهم إلى القول بأنّ أهم ما جاء به نيتشه إلى الفكر الحديث يكمن في تناوله مشكلة قلب القيم[148].

1- أنظر مثلا : **GS**., Friedrich NIETZSCHE : Le gai savoir, trad. Henri ALBERT, le livre de poche, Imp. Brodard et Taupin, Sarthe, 1993., §358

2- "لا يكمن خلاصنا في **المعرفة** بل في **الإبداع**" **LP**., Friedrich NIETZSCHE : Le livre du philosophe., trad. par Angèle-Kremer MARIETTI : **VP,I,L1&2**., Ed. Aubier – Flammarion., Paris ., 1991., §8 ; Friedrich NIETZSCHE : La volonté de puissance, vol.1, trad. par Geneviève BIANQUIS, Gallimard, Imp. Bussière, Saint-Amand (Cher),2000., p.40

3- **Cr. Id**., Friedrich NIETZSCHE : Crépuscule des idoles ou comment philosopher à coups de marteau, trad de Jean- Claude Hémery, Gallimard, Imp. Brodard et Taupin, Sarthe, 1998., la raison dans la philosophie., §5 **; A**., Friedrich NIETZSCHE :

Aurore, réflexion sur les préjugés moraux., trad. Henri ALBERT, le livre de poche, Imp. Brodard et Taupin, Sarthe, 1995., §120

Idem -4

CW., Friedrich NIETZSCHE : Le Cas Wagner, trad. par Jean-Claude HEMERY, Gallimard, Imp. Bussière, Saint- Amand (Cher),1991., 7.,p.33&34 -5

LP., § 87 -6

George MOREL : Nietzsche,vol.1.,éd. Aubier-Montaigne., Mayenne.,1970.,p.84 -7

Philo.ETG., Friedrich NIETZSCHE : la philosophie à l'époque tragique des grecs., trad. de l'allemand par Michel HAAR et Marc B. DE LAUNAY, Gallimard, Imp., Brodard et Taupin à la flèche (Sarthe), 1990.,§5 -8

VP,I, § 104 ; VP,I,L2, §58(1888) -9

VP,I,§104 -10

Friedrich WURZBACH : Postface à volonté de puissance, T.2.,op.cit.,p.484 -11

GS., §152; Georges ALLEN MORGAN, Jr :What Nietzsche means, Harvard university Press, Cambridge, Massachustts,1943., p.246 -12

VP,I,L2, §14 -13

A, §48 -14

Ludwig WITTEGENSTEIN,http://www.utm.edu/research/iep/w/wittgens.htm -15

NT., Friedrich NIETZSCHE : La naissance de la tragédie ou hellénisme et pessimisme ; trad. par Jean MARNOLD et Jean MORLAND., le livre de poche., Imp. Brodard et Taupin, La Flèche (Sarthe),1994., p.73 & 74 -16

HTH., Friedrich NIETZSCHE : Humain, trop humain, trad. de A-M. DEROUSSEAUX et H. Albert., Le livre de poche., Imp. , Brodard et Taupin, La Flèche (Sarthe),1995., § 2 -17

VP,I,L2, § 13 -18

VP,I,L2, § 335; LP, § 177; HTH., § 2 -19

VP,I,L2, § 230 -20

Ibid, § 173 -21

ibid, § 230 -22

Patrick WOTLING: Le vocabulaire de Nietzsche., éd. Ellipses., Paris., 2001., p.20 -23

-24 **APZ**., Friedrich NIETZSCHE : Ainsi parlait Zarathoustra, trad de Georges-Arthur GOLSCHMIDT, Imp. Brodard et Taupin, le livre de poche, Paris,1972.,des contempteurs du corps, p. 41 & 42

-25 G.A.Morgan., op.cit., p.242

-26 Ibid.,p.244 ("لم تبتدع طريقة الحقيقة لأجل أسباب الحقيقة بل **بدوافع القوة والهيمنة**" VP,I,L1, §190 ؛ "كافة أعضاء المعرفة عندنا لم تتطور سوى لخدمة حفظنا ونمونا"§192 ,ibid)

-27 VP,I, § 10

-28 **VMSEM**, Friedrich NIETZSCHE : Introduction théorétique sur la vérité et le mensonge au sens extra-moral (été 1873), (exposé continu) in **Philo.ETG**., op.cit., p.207

-29 GS, § 109

-30 VP,I,L2, § 15

-31 Philo.ETG.,§15; LP., § 47

-32 LP., § 36

-33 Philo.ETG.,§10, p.47

-34 أنظر مثلا ملخص لنقد نيتشه في LP, §152

-35 LP, §152

-36 هنا يكمن مدى أثر فقه اللغة الواضح على فلسفة نيتشه، ومثال ذلك: ;LP, §139
GM, Friedrich NIETZSCHE : La généalogie de la morale, trad. Henri ALBERT, Gallimard, Imp. Bussière, Saint- Amand (Cher) ,1972., I, §4 ; GS, §344 & §355

-37 Cré.id., la raison dans la philosophie, §5

-38 A, §1; HTH, §31

-39 CP,I, p.175

-40 A, §117

-41 **FP**., Friedrich NIETZSCHE : /A., op.cit., Fragments posthumes 3[34]

-42 FP10[E96]

-43 LP, §19

-44 VP,I,L2, §58

-45 LP, §79

-46 HTH., § 216

-47 GS, §354

-48 Idem

-49 VMSEM, p.209

-50 GS, §354

BPM., Friedrich NIETZSCHE : Par-delà bien et mal, prélude d'une philosophie de l'avenir, trad. par Cornéluis HEIM, Gallimard, Imp. Brodard et Taupin, Sarthe, 1999.,§268 -51

VP,I,L2, §226 -52

GS, §354 -53

GS, §354; Cré.id.,divagation d'un inactuel, §26 -54

GS, §354 -55

VMSEM, p.212 -56

GS, §11 -57

PBM, §36 -58

Ibid, §3 -59

A, §42 -60

Friedrich WÜRZBACH: op.cit.,p.481; EH,La naissance de la tragédie,p.141 -61

PBM, §3 -62

Louis CORMAN: Nietzsche,psychologie des profondeurs., PUF., Paris., 1982.,p.106 -63

VP,II,L3&4, Friedrich NIETZSCHE : La volonté de puissance, vol.2, id,Imp., société nouvelle Firmin-Didot à Mesnil-sur-l'Estreé ,2002., L3, §572 -64

Ibid, §574 -65

Ibid, §609 &§ 613 -66

VP,I,L1, §13 -67

Arnauld DEWALQUE: Heidegger, Rickert, Nietzsche et la philosophie de la vie : sur les problèmes de la formation des concepts en philosophie,www.pheno.ulg.ac.be/Arnauld_Dewalque.,p.10 -68

Marc de LAUNAY: Glossaire in Friedrich Nietzsche : **Essai d'autocritique** et autres préfaces, trad. par MARC DE LAUNAY, Ed. du Seuil, imp. Maury- Eurolivres .,1999., p.147 -69

A.Dewalque, op.cit.,p.3 -70

Pierre CHASSARD: Nietzsche, finalisme et histoire., éd.Copernic., Paris.,1977.,p.104 -71

Nietzsche : Essai d'autocritique., La naissance de la tragédie, §2,p.23 -72

LP§,51 -73

LP, §51, §64… -74

VP,I,L2, §65 -75

LP, §55 -76

Idem -77

78- VMSEM,p.208

79- Idem

80- **RWB**., Friedrich NIETZSCHE : Richard WAGNER à Bayreuth, trad. Pascal DAVID, Gallimard ; Imp. , Brodard et Taupin, La Flèche (Sarthe),1995., §5

81- NT,p.71

82- Ibid,p.73 & 74

83- Arthur SCHOPENHAUER: le monde comme volonté et comme représentation, vol.3., trad. par A. Burdeau., 5°éd., Félix ALCAN éditeur., Paris., 1909., §52

84- GS, §152

85- LP, §65

86- FP6[343]

87- GS, §354; **CP,** Friedrich NIETZSCHE **:** Cinq préfaces à cinq livres qui n'ont pas été écrits, trad. par Michel HAAR et Marc B.de Launay ., Gallimard, Imp., Brodard et Taupin à la flèche (Sarthe), 1990**.,** p.176

88- LP, §39

*- أنظر مثلا: المقال الذي ترجمته Laure SCHALCHI ، والذي بينت فيه كيف بدأ التحكم في اللغة من خلال سلوكين رمزيين هما: إيحائية الوجه وبروز تركيب الكلام Syntaxe، أي القدرة على تقليد تعابير الوجه أو على ترتيب الحركات، وإنّه بالتقليد تعلم الطفل أولى كلماته..إلخ (Revue de La Recherche, n°19(mai-juillet2005) ; art de la revue Nature,pp89-90.).

89- LP, §54

90- VP,I,L2, §121

91- George Allen MORGAN Jr.:op.cit. , p.245

92- VP,I,L2, §446

93- NT, §16,p.127

94- LP, §97

95- VP,II,L3,§461

96- HTH, §11

97- VMSEM,p.212

98- HTH, §11, §19, §33

99- Ibid, §18

100- VP,I,L1, §103

101- VP,II,L3, §609

102- Ibid, §629; A, §212; GS, §354

-103 LP, §97
-104 VP,I,L1, §151
-105 LP, §50 & §54; A, §117
-106 PBM, §24
-107 Philo.ETG., §6,p.35
-108 PBM, §34; VO, §67
-109 A, §117
-110 G. Morgan., op.cit.,p.246; FP6[349]
-111 LP, §144
-112 Cré.id., la raison dans la philosophie, §3
-113 LP, §144
-114 PBM, §192
-115 John HARTMANN : Nietzsche's, use of metaphor,http://www.geocities.com/Athens/1575/nmetaphor.html
-116 Angèle-Kremer MARIETTI: Introduction à LP., op.cit., p.33
-117 Samuel E. STUMPF: Elements of philosophy., second., ed. Mc Graw-Hil international. NY.,(w.d.).,p.100 & suiv.
-118 NT,p.73
-119 Eugen FINK: La philosophie de Nietzsche.,trad. de l'allemand par Hans HILDENBRAND et Alex LINDENBERG..,éd. de Minuit., Paris., 1965.,p.21 & 22
-120 Idem
-121 John HARTMANN,op.cit.,p.2؛ جان لاكوست: فلسفة الفن، ترجمة ريم الأمين، عويدات للنشر والطباعة، بيروت،2001، ص،92،93
-122 Ibid.,p.3
-123 LP, §91
-124 W. SCHMID : La philosophie comme art de vivre, Magazine Littéraire (hors série: Nietzsche., N°3, IV°trimestre, Paris., 2001., p.45
-125 APZ, lire et écrire, p.50
-126 Guillaume METAYER : Nietzsche et Voltaire : la critique du langage philosophique, http://www.cndp.fr/magphilo 09/nietzsche-Imp.htm
-127 P.Chassard,op.cit.,p.117 & 119
-128 VP,II,L4, §608
-129 **Anté.**, Friedrich NIETZSCHE **:** L'Antéchrist, trad. par Jean-Claude HEMERY, Gallimard, Imp. Brodard et Taupin,1990., §15
-130 VP,I,L1, §112

-131 Heinrich MANN: Nietzsche., Cassel & Co. Ltd.,second edition.,London.,1942., p.190

-132 Poinsot: Eléments de statistique., Paris., 1861.,p.239

-133 Helmholtz: Optiques physiologiques, trad. par Javal & Klein., éd. Mason et fils., Paris, 1867.,p.1001

-134 Heinrich MANN: op.cit., p.10

-135 LP, §92

-136 العقل والتفكير الواعي أمور بيولوجية لدى نيتشه، أنظر مثلا ;PBM, §3; GM, §11 A, §42 :

OSM, Friedrich NIETZSCHE **:**Opinions et sentences mêlées., trad. par H. Albert.,Imp.,Bussières à Saint-Amant (Cher), 1981., §122

-137 LP, §63

-138 LP, §97 & §144

-139 PBM, §268

-140 APZ, le convalescent, II., p.311

-141 VMSEM., p.212

-142 Richard .BEARDSWORTH : Nietzsche., Les Belles Lettres.,St-Amand-Montrand.,1997.,p.112 & 113

-143 Marie-Françoise BASLEZ : Le péril barbare in La Grèce ancienne.,ouvrage collectif.,éd du Seuil.,Imp. Mame., Tours.,1986.,p.285

-144 GS, p.1

-145 G.Morgan.,op.cit.,p.258; P.Wotling.,op.cit.,p.194

-146 Yirmiyahu YOVEL : Les Juifs selon Hegel et Nietzsche., Seuil.,Imp. Floch à Mayenne.,Paris., 2001., p.188

-147 W.Branger : Pour connaître la pensée de Nietzsche., Bordas.,(s.l.)., 1946.,p.11